مفهوم النص في التراث اللساني العربي

الدكتور بشير إبرير*

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة تتبع مفهوم النص في التراث اللساني العربي باستنطاق نصوص بعض أعلامه المشهورين مثل: الخليل وسيبويه والإمام الشافعي والجاحظ وعبد القاهر الجرجاني... وغيرهم، وذلك من خلال منظومة من المفاهيم المفاتيح مثل: الجملة والقول والخطاب والنظم والتبليغ والبيان. وكلها مفاهيم أساسية في النظرية المكونة للنص بخاصة؛ ولذلك يمكن تحديد مفهوم النص بالتفريق بين مستويين من الدراسة هما: مستوى البنية ومستوى الخطاب الذي يعد حدثاً إعلامياً يتطلب عناصر كالمتكلم والمخاطب والمعلومات التي يعرفها عن الخطاب والمقام الذي يحدث فيه كل ذلك.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عنابة، الجزائر

1- مقدمة:

يعد تعريف النص مبحثاً صعباً في التراث اللّساني العربي نظـراً لأن التـراث واسع ومتنوع جداً تحتاج عملية البحث فيه إلى كفاية من الوقـت والجهـد والحنكـة المنهجية والعدة الإجرائية، وذلك لتعدد المنطلقات الفكرية والمعرفية والمداخل الخاصة بدراسته ودراسة النص فيه، ولهذا فإن تتبع هذا المفهوم في التراث اللساني العربي لا أراه ممكناً وفي متناول باحث واحد يكتب مقالاً أو يقدم درساً جامعياً، وعليه سـأختار بعض النماذج من علمائنا الأجلاء لنذكّر ببعض من أفكارهم المتعلّقة بالظاهرة اللغوية بصفة عامة ومنها النص.

1. **النص في المعجم**: نرى البدء بالبحث عن مصطلح "نص"من تتبـع المـادة المعجمية مشروعاً لأن الميدان الذي تتحقّق فيه العلاقات بين الجمل صارت تكون في الدراسات اللسانية الحديثة نظاماً اسمه "**النص**".

إن المتأمل في لسان العرب "لابن منظور" (ت 711هـ) يجد أن المادة اللغويـة (ن،ص،ص) تعني "النص" وجمعه "نصوص"، أصله "نَصص" وهو على وزن "فَعلَ" يقال: "نص ينُص نَصاً"، و"النص" رفْعك الشيء . و"نص الحـديثَ" ينصـه نصـاً: رفعه، وكلّ ما أُظْهِر فقد نُص، ومنه المنصة، وقال "الأزهري" (ت 370هـ): "النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ومنه نصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عـن الشيء، حيث تستخرج كلّ ما عنده وكذلك النص في السير إنّما هو أقصى مـا تقـدر عليه الدابة... ونص الشيء وانتصب إذا استوى واستقام[1].

ونصت الضبيةُ جيدها: رفعته.

وقد جاء في قول "امرئ القيس": [من الطويل]

1) - ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، مادة :(ن،ص،ص).

وجِيدٍ كَجِيدِ الرِئْم لَيس بِفَاحِشٍ إذَا هِي نَصتْه ولا بِمعطل[2].

نستخلص من قراءتنا لهذه المادة المعجمية أن النص يعني: الرفع بنوعيه الحسي والتجريدي وأقصى الشيء وغايته، والاستقصاء والإظهار وله صلة بالاستقصاء، فالنص عند الفقهاء:" نص القرآن ونص السنّة" أي ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام"[3].

تفيد هذه المعاني جميعها أن النص هو ما يرتفع أو يظهر إما كحدث كلامي من خلال الصوت المسموع وإما كإنتاج خطي مرئي تظهره الكتابة.

2. النص في الاصطلاح:

يمكن أن نبحث عن مفهوم النص في التراث من خلال التطرق إلى جملة من المفاهيم مثل: الجملة والكلام والقول والتبليغ والخطاب والنظم، وكلّها مفاهيم أساسية في النظرية اللغوية العربية بعامة والأسس النظرية المكونة للنص بخاصة. إنّها منظومة مفاهيم أرى من الضروري تسليط الضوء عليها لأن بينها وشائج قربى وعلاقات نسب.

3 -1 الجملة: تعد الجملة وحدة الدرس النحوي وهي في نظر اللسانيين البنويين الوصفيين أكبر وحدة لسانية قابلة للوصف اللساني.

وقد درسها العلماء العرب القدامى دراسات عديدة تحت أبواب إعرابية ونحوية ودلالية، ومن أهم التعريفات التي وضعوها للجملة أنّها: "أقلّ قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بالفهم سواء أتركّب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر"[4].

---

2) - المعلقة، البيت 34، ص،16، من الديوان، نقلا عن د/ محمد شاوش ، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، المجلد/1، جامعة منوبة ، تونس، ص، 184، 2001.

3) - الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط/1، ص، 1993/11،12.

4) - نقلاً عن الدكتور إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة ، طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ص، 191، د،ت.

يعني هذا أن الجملة وحدة لغوية أقل من الكلام غرضها إفادة السامع معنى مـن المعاني يوجد فيها ويميزها عن غيرها من الجمل الأخرى، وهنا نطرح مسألة الفـرق بين الجملة "**la phrase**" وبين الكلام "**la parole**" إذ ما يبدو من هذا التعريف هو:

- الجملة جزء من الكلام.

- الكلام أشمل من الجملة بما أنّها جزء منه.

ولكن يوجد من يسوي بين الجملة والكلام مثل:

"عبد القاهر الجرجـاني"(ت471 هـ ـ) و"الزمخشـري" (ت538 هـ ـ) فـي المفصل[5]، فقد صرحا بالتسوية بينهما وتابعهما في ذلك "ابن يعيش"(ت643 هـ) في شرح المفصل للزمخشري.

ويوجد من يميز بين الجملة والكلام مثل "رضي الـدين الاسـترابادي" (ت686 هـ) و"ابن هشام الأنصاري" (ت761 هـ) **فالكلام عنده هو القول المفيـد بالقصـد**، والجملة عبارة عن الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر وما كان بمنـزلة أحدهما[6].

وأهم ما يمكن استنتاجه من رأي "ابن هشام الأنصاري" هـو أن الكـلام قـول "énoncé" مفيد بالقصد، فإلى جانب عنصر الإفادة يوجد عنصر القصد ولا يتم التعبير عن هذا القصد وتحقيق غرض الإفادة إلاّ بوحدة لغوية أكبر من الجملة هي الكلام.

وقد عد "ابن سراج" (ت316 هـ) الجملة والكلام مترادفين علـى الـرغم مـن تأكيده **أن الجملة هي النواة التركيبية** سواء أكانت اسمية أم فعلية شأنه شأن "المبـرد" (ت285هـ) في المقتضب؛ فقد أعدهما مترادفين[7].

---

5)-د/ محمد أحمد نحلة، لغة القرآن في جزء "عم"، ص، 449.

6)-انظر:د/ مازن الوعر، جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب في ضوء نظرية النحو العالمي لتشومسكي، ص،9، لبنان، 1999.

7)- المرجع نفسه، ص، 9.

ولكن لابد من التأكيد على مسألة أراها مهمة وهي أن كلاً من "ابـن السـراج" و"المبرد" لم يفتهما الالتفات إلى شرط الإفادة في الكلام، وقد نص علـى ذلـك "ابـن السراج" عند حديثه عن المبتدأ والخبر بقوله: "إنّما يراعى في هـذا الجانـب وغيـره الفائدة، فمتى ظفرت بها في المبتدأ وخبره فالكلام جائز، وما لم يفد فلا معنى له فـي كلام غيرهم."(8)

وإذا ما عدنا إلى قبل هؤلاء إلى شيوخ العربية "الخليل بن أحمد"(ت175 هـ ـ) و"سيبويه"(ت180 هـ) فإنّنا لا نعثر على مصطلح الجملة في "الكتاب" يقول الـدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" :" فهذا أمر غريب آخر فلا يوجد أي أثر للكلمة (الجملـة) في كتاب "سيبويه" وكذلك العبارة (جملة مفيدة) لا أثر لها في "الكتاب". ولا نعثر على كلمة (جملة) بعد "سيبويه" إلاّ في كتـاب "المبـرد" "المقتضـب" ونـرجح أن شـيخه "المازني"(ت 249هـ) هو الذي وضع المصطلح فإنّه أول نحوي يستعمل كلمة فائدة" بمعنى العلم المستفاد من الكلام وهذا المفهوم يعبر عنه "سيبويه" بكلمة " علم" ..."(9)

إن "سيبويه" يسمي الجملة "كلاماً" يحسن أن يسكت المتكلّم عند انتهائه لاسـتقلاله من حيث اللفظ والمعنى وتتأسس نظرته على التمييز الحاسم بين النظرة إلـى الكـلام كخطاب، أي باعتباره حدثاً إعلامياً يحصل في زمان ومكان معينين، والنظـرة إليـه كبنية؛ فالكلام المستغنى أو الجملة المفيدة هو أقلّ ما يكون عليه الخطاب إذا لم يحصل فيه حذف، ويمكن أن يحلّل إلى مكونات ووحدات وعناصر خطابية لكل منها وظيفـة دلالية وإفادية كما فعل "سيبويه" في القرن الثاني الهجري(10) ويفعله علماء اللسان في وقتنا.

---

8)- المرجع نفسه، ص10.

9) - د/ عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سـيبويه، مجلـة المبـرز، العـدد، 2، ص8، الجزائر، 1993.

10) - انظر: المرجع نفسه، ص10،9.

يقول الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" : "إن "سيبويه" و"الخليل بن أحمد" قد انفردا مع أكثر النحويين بنظرية اندثرت بعدهم بعد غزو المنطق اليوناني خاصة. لا يتفطّن إليها إلاّ الأفذاذ من النحاة مثل "السهيلي" و"الرضي الاسترابادي". ومن أهم المبادئ التي بنيت عليها هذه النظرية نذكر تمييزهم الصارم في تحليلهم للغة بين الجانب الوظيفي من جهة وهو المخاطبة؛ أي تبليغ الأغراض المتبادلة بين ناطق وسامع وبين الجانب اللفظي الصوري؛ أي ما يخص اللفظ في ذاته وهيكله وصيغته بقطع النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة اللفظية من جهة أخرى إذ هناك دلالة اللفظ ودلالة المعنى..."[11]

إن البحث عن مفهوم للنص يمكن أن نبدأه بالحديث عن سيبويه فإذا كان لم يستعمل "جملة" ولا "جملة مفيدة" فإنّه قد يستعمل مكانها لفظة "كلام" كوحدة إعلامية تبليغية بين متكلّم ومخاطب، فالكلام المستغنى عنه بالسكوت هو الذي يحقق **الفائدة** وبه يحصل **المعنى**.

وقد ميز العلماء العرب القدامى بين الفائدة وبين المعنى، فلابد لكل كلام من **معنى** ولكنه قد يكون غير مفهوم للسامع لأن السامع يعرفه. وأما **الفائدة** فتتمثل في إفادة السامع خبراً يجهله؛ أي إنّه لم يكن يعلمه ولا خبر خصائصه من قبلُ. وإذا كان "سيبويه" قد ألح على هذه الوظيفة فقد التبس الأمر على الذين جاءوا بعده.

يتأسس **الكلام** عند "سيبويه"على جانبين اثنين هما:

- المستوى البنوي الشكلي.
- والمستوى الوظيفي الخطابي الإعلامي الإخباري.

11) - المرجع نفسه،ص،9.

ونشير إلى أن هذين المستويين بينهما ترابط عميق، ولذلك فهو عندما يتحدث عن الخبر يتجاوز النظرة الشائعة بالعلاقة الإسنادية بين المسند والمسند إليه، فالخبر ينقسم عنده إلى:

- خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه.
- وخبر ليس جزءاً من الجملة ولكنه زيادة في خبر سابق له.

فالأول خبر المبتدأ مثل: زيد منطلق، **والفعل** مثل: خرج زيد، وكل منهما جزء من الجملة وهو الأصل في الفائدة " لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلّم منه بدأ[12].

والثاني هو الحال مثل: جاءني زيد راكباً، وذلك لأن الحال خبر في الحقيقة من حيث إنّك تثبت بها المعنى لذي الحال كما تثبته بالخبر للمبتدأ وبالفعل للفاعل[13] ويسميه "سيبويه" "المبني عليه"[14] أي أنّه قد بني على المبتدأ.

وبهذا فإن الخبر عند "سيبويه" يعني الإعلام الذي يحصله للمخاطب العلاقات الإسنادية بين المسند (المحدث به) والمسند إليه (المحدث عنه) فلا تتعلّق بالبناء وإنّما ترتبط بالإفادة. ولهذا أهمية عظيمة جداً فهو يتعلّق في وقتنا بما تم التوصل إليه في إطار نظرية الإخبار أو الإعلام "théorie de l'information" فقد توصل علماء الإعلام والاتصال إلى ما يسمى "بتكميم الخبر" أي قياس كمية المعلومات والأخبار الواصلة فعلاً من مرسل نحو مرسل إليه بوحدة قياسية سموها "BIT"[15].

---

12)-انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، ص، 206 وما بعدها، 1991.

13)-سيبويه، الكتاب، 23/1، تح، عبد السلام هارون، عام الكتب، بيروت، ط/3، 1983.

14)-سيبويه،ص، 23.

15)-انظر: عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، المجلد1/عدد/2، 1971، هامش،87، ص،65.

ولا نعتقد أن عملية الإخبار والإفادة تصل من جملة واحدة، وإنّما من وحدة جملية ينتجها متخاطبان اثنان على الأقل أو عدة متخاطبين من أجل التبليغ وتحقيق التواصل.

نقول هذا إذا تعلّق الأمر **بالمشافهة والتداول الجاري** بين متكلّم ومخاطب، أما إذا تعلّق **بالتحرير/الكتابة** فإنّه لابد أن يتم تثبيت ذلك بواسطة الكتابة ليظهر من خلال وحدة لغوية دلالية مكتوبة تسمى "نصاً".

يعني هذا أن مستوى التفكير المنهجي المنظم في ضوابط اللغة وقوانينها قد بلغ أشده عند اللغويين القدامى من حيث المنهج والمصطلح.

وقد اتضح كلّ ذلك في كتاب "سيبويه" الذي يعد قمة من قمم التفكير العربي في اللغة لما اشتمل عليه من مستخلصات هي حصيلة تفاعل النظر المجرد ومادة ضخمة تعاقبت أجيال من اللغويين على درسها وترويضها[16].

فقد أرادوا كما يقول الدكتور "حمادي صمود" أن تمر اللغة من الفوضى إلى النظام[17]. فوضعوا لها قوانين وقواعد وضوابط مثّلت سلطة المعيار الذي يجب أن يحترم ولا يمكن الخروج عنه إلاّ بما تسمح به الضرورة وتبرره، ولكن حركية اللغة وجدت نفسها في مواجهة هذا الحاجز، حاجز النحو وقوانينه الصارمة، وصار هناك صراع بين المعيار والاستعمال، لكن العلماء العرب القدامى استوعبوا هذا "بالتأويل والتعليل وراحوا يبحثون عن المؤشرات اللغوية وغير اللغوية التي تربط حبل الأسباب بين البنية النظرية وبين ما هو موجود بالفعل، مؤكّدين أن الخروج ظرفي، يعود إلى الأصل متى انعدمت أسبابه، فدخلوا من حيث أرادوا الإقناع بسلامة قوانينهم اللغوية في تأويل المقال والبحث عما يجعل نهجه في الدلالة مغايراً لنهج الجملة المجردة"[18].

16)- انظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة) ط/2، 1994، منوبة، تونس، ص،99.
17)-انظر: المرجع نفسه، ص، 100.
18)-نفسه،ص، 100،101.

وقد نتج عن ذلك مفهوم نظري مهم جداً في التراث اللساني العربي صار هو قطب الرحى في العمل البلاغي عند العلماء العرب القدامى وهو **مفهوم "الاتساع أو التوسع" في الكلام** ويوضح "سيبويه" العوامل التي حملت الناطقين بالعربية على التوسع والاتساع وأغلبها يكمن في الحذف **بأنّها هي طلب الخفة على اللسان واتساع الكلام والاختصار** رابطاً كلّ ذلك "بعلم المخاطب"[19] متحدثاً عن الحذف بجميع أنواعه مثل حذف الاسم سواء أكان مضافاً أم مضافاً إليه، وحذف المبتدأ والخبر سواء أكان للإغراء أو التحذير أو التعجب مراعياً – في ذلك- التخفيف على اللسان ووجود القرينة التي نجدها في علم المخاطب .

فالخفّة على اللسان تساعد على التبليغ بسهولة ويسر وعلم المخاطب بهذه الخصائص يسهل عليه فهم الكلام الموجه ثم إنّه مرتبط بأحوال التخاطب مثل: حالات الإغراء والتحذير والتعجب وغيرها...

وهكذا فلكي يتم الاتساع في الكلام فلابد من وجود عناصر عدة منها ما يتعلّق باللغة كبنية ومنها ما يتعلّق بظروف أو أحوال محيطة بإحداث الخطاب.

فأما ما يتعلّق بالبنية فإنّنا نرى أنّه لابد من تجاوز الجملة إلى وحدة لسانية أكبر منها ولتكن خطاباً أو نصاً.

وأما ما يتعلّق بالظروف المحيطة بإحداث الخطاب أو ما يشكّل **مقاماً** "situation" فإنّنا قد لا نستوفي التعبير عن هذه الظروف أو المقامات بجملة واحدة منفردة عن أخواتها وإنّما نحتاج للتعبير عن ذلك إلى **شبكة من الجمل أو نسيج لغوي** نكون منه **مقالاً** مناسباً لذلك المقام. وهكذا فإن ما نستشفّه من كلام "سيبويه" وآرائه يتشابه في أحيان كثيرة مع ما تم التوصل إليه في الدراسات اللسانية الحديثة.

فقد كانت الجملة هي الوحدة الأساسية التي لا يمكن تجاوزها في التحليل عند اللسانيين البنويين الوصفيين، ثم تمت الدعوة إلى تجاوزها إلى وحدة لسانية أكبر منها

19)- انظر:سيبويه، ص، 74.

بدءاً من "هاريس" "HARISS" سنة 1952م فهو أول من اســتعمل تحليــل الخطــاب، وحاول بذلك تجاوز الجملة مروراً بوحدات لغوية أخــرى مثــل الملفــوظ "énoncé" والتلفّظ "énonciation" كما عند "بنفينيست" "BENVENISTE" ثم النص باعتباره شكلاً لسانياً للتفاعل الاجتماعي عند علماء اللسانيات الاجتماعية والتداولية أمثال "هاليــداي" "HA LLIDAY".

إن طلب الخفّة على اللسان واتساع الكلام والاختصار تقتضــي القــدرة علــى الإفصاح والإبانة وحسن التعبير عن الأغراض وتبليغ المقاصد، ومن هنــا يمكــن أن نتحدث عن مفهوم آخر ذي أهمية في تراثنا اللغوي والبلاغي وهو "البيان".

3 –2 مفهوم البيان:

نشأ هذا المفهوم وترعرع في أحضان حقل معرفــي بلورتــه العلــوم العربيــة الإسلامية الاستدلالية الخالصة المتمثلة في النحو والفقه وعلم الكلام والبلاغة وبخاصة منه "علماء البيان" من لغويين ونحاة وبلاغيين وأصوليين ومتكلّمــين ســواء أكــانوا معتزلة أم حنابلة أم ظاهريين؛ فهؤلاء جميعاً باحثون مختصون صاغوا مفاهيم الحقــل المعرفي الذي ينتمون إليه وهو حقل البيان[20].

وبهذا فإن مفهوم البيان ليس من اختصاص علماء البلاغة وحدهم على الرغم من كونهم قسموه إلى: "علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، وإنّما اهتمام علماء البلاغــة بهذا العلم قد ظهر متأخّراً على مسرح الدراسات البيانية، وأن تصنيفهم لعلوم البلاغــة قد جاء في فترة متأخرة ولم يتم تصوره بدقّة وبشكل نهائي إلاّ مــع "الســكاكي" (ت 626هـ)"[21].

---

20)- انظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافــة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/5، ص، 13، بيروت، 1996.

21) - انظر: المرجع نفسه، ص، 14،13.

أما قبل "السكاكي" فقد كان البيان يعني كل ما من شأنه أن يحقّق **التبليغ** بما يشمل من فهم وإفهام.

ولابد من الإشارة –ههنا- إلى أن البحث في مفهوم البيان يعد من الأعمال الأساسية التي أسهمت في نقل الثقافة العربية الإسلامية من نطاق "**المشافهة والرواية**" إلى نطاق "**الكتابة والدراية**"[22]. فقد ارتبط ذلك بمشروع تأصيل المعارف العربية الإسلامية وتوثيقها[23]، ولا يكون هذا إلاّ من خلال النصوص فبواسطتها نصف ما كان وننقل ما هو كائن ونؤسس لما سيكون، وذلك يحتاج إلى ضبط الأصول ووضع القوانين والقواعد في تفسير الخطاب والنصوص.

إن النص مقولة مركزية في بناء الحضارة حتى إن الحضارة العربية الإسلامية توصف بأنّها حضارة النص، بمعنى أن القرآن الكريم يعد نصاً محورياً فيها " وليس معنى ذلك أن النص بمفرده هو الذي أنشأ الحضارة، فإن النص أياً كان لا ينشئ حضارة ولا يقيم علوماً وثقافة. إن الذي أنشأ الحضارة وأقام الثقافة جدل الإنسان مع الواقع من جهة وحواره مع النص من جهة أخرى...

وللقرآن في حضارتنا دور ثقافي لا يمكن تجاهله في تشكيل ملامح هذه الحضارة وفي تحديد طبيعة علومها. وإذا صح لنا بكثير من التبسيط أن نختزل الحضارة في بعد واحد من أبعادها لصح لنا أن نقول : "إن الحضارة المصرية القديمة هي حضارة ما بعد الموت وأن الحضارة اليونانية هي حضارة "العقل" أما الحضارة العربية الإسلامية فهي حضارة "النص"[24].

22)- المرجع نفسه،ص،14.

23)-انظر: محمد إقبال عروي، من بنود الاصطلاح في التراث الإسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد/23/22، سنة 1998، بالإمارات العربية المتحدة، وانظر: د/ صلاح فضل، إشكالية المصطلح النقدي بين الوضع والنقل، مجلة كلية الآداب، فاس، المغرب، عدد/4، سنة 1988، ص، 69،70.

24)-د/ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، ط/2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص، 9.

بناء على هذا يمكن النظر إلى سيرورة العرب التاريخية في مختلف أبنيتها وأنساقها وتحولاتها؛ أي النظر إلى القرآن الكريم باعتباره فضاء دلالياً وإلى اللغة العربية باعتبارها "المؤسسة التي انتظمت نشاطات العقل العربي. وهذا النظر هو المفضي حقاً إلى الوقوف على نمط تفكير القوم وطريقة اجتماعهم وطبائع سياساتهم.

وإذا كانت الحضارة الغربية قد انطلقت مما يسمى بالأعجوبة اليونانية، التي قفزت بالفكر من المستوى الخرافي إلى المستوى العقلي، فإن الأعجوبة اللغوية هي التي صنعت الحضارة العربية الإسلامية[25].

وإذا دقّقنا النظر أكثر قلنا إن الذي صنع الحضارة العربية الإسلامية أعجوبة بيانية أداتها المجاز بين دالها ومدلولها مسافة يستحيل معها التطابق الدلالي.

إن كلمة "بيان" كلمة عربية أصيلة خالصة لا يوجد ما يقابلها في اللغات الأخرى وهي أكثر الكلمات استعمالاً في القرآن الكريم، فقد وردت مادة "ب،ي،ن" في القرآن أكثر من (250)مرة ثم أصبحت بعد ذلك علماً مستقلاً بنفسه هو "**علم البيان**" بل لقد أصبحت تدلّ على نظام معرفي محدد أخذ الوعي به كرؤية ومفاهيم وطريقة في التفكير يتبلور ويتعمق مع الأيام داخل الثقافة العربية الإسلامية[26].

وإذا تتبعنا مادة (ب،ي،ن) في لسان العرب في أصل تداولها عند العرب الخُلص فإننا نجدها تتناول الدلالات الآتية:

الفصل والوصل والظهور و الوضوح والفصاحة والقدرة على التبليغ والإقناع، والإنسان حيوان ناطق؛ أي عاقل.

والبيان من ثم يوازن "العقل في حقله المعرفي البياني"[27] وبهذا فإن هذا الإنسان الحيوان الناطق "خالق الرموز، يرتحل باستمرار في عالم الكلمات. والارتحال لا يعني

25)- علي حرب، الحقيقة والمجاز، نظرة لغوية في العقل والدولة، دراسات عربية، عدد/ 6، سنة 1983، ص، 41.
26)- للاستزادة، انظر: محمد عابد الجابري، المرجع المذكور سابقاً، ص، 16.
27)- نفسه، من ص، 16 إلى ص، 20.

دوماً خلق رموز جديدة أو تسمية أسماء لم تسم بعد. وإنّما يعني القدرة على فض أسرار اللغة، القدرة على اكتشاف كل أبعاد التسميات وتعميق مداولات الألفاظ والعبور إلى حقول دلالية جديدة، إنّه العثور على المعنى حيث لا يظن اللامعنى وتأويل ما قد أول والنفاذ إلى ما لم يقل. ولا جدوى برأيي من الحديث عن معجزة بيانية بعيداً عن هذا الفهم، أي عن الوجوه الكثيرة للكلام وعن الاحتمالات المتعددة للمعاني عما يسمى فسحة القول واتساع النص"[28].

وبهذا نجد أنفسنا أمام مفاهيم أخرى يقتضيها النص مثل:

الشرح والتفسير والتأويل، أو إن شئت فقل: الشروح والتفاسير والتآويل؛ لأن "النص حين يكون محوراً لثقافة أو حضارة فلابد أن تتعدد تفسيراته وتأويلاته"[29] وهكذا فإن المعجزة البيانية قد أدت إلى تعدد النصوص، وتعدد البحث في مستويات البيان وطاقاته فيها مما أدى – على رأي الأستاذ محمد عابد الجابري- إلى تقسيم البحوث قسمين؛ قسم يعنى "**بقوانين تفسير الخطاب**" وقسم يهتم بـ "**شروط إنتاج الخطاب**"[30].

نتناول في هذا الشأن مفهوم البيان عند كل من "الإمام الشافعي" (ت 204هـ) باعتباره ممن قد اهتموا بقوانين تفسير الخطاب و"الجاحظ" (ت 255هـ) باعتباره ممن اعتنوا بشروط إنتاج الخطاب.

3 –2 -1 مفهوم النص من مفهوم البيان عند الإمام الشافعي:

نشير إلى أنه قد وجدت دراسات سبقت "الشافعي محمد بن إدريس" أو عاصرته في تناول البيان[31] ولكن للإمام الشافعي تميزاً وأصالةً في دراسة البيان العربي نظراً

---

28)- علي حرب، الحقيقة والمجاز، نظرة لغوية في العقل والدولة،ص، 40.
29)-نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص، 9.
30)-انظر محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص، 20.
31)-نذكر منها دراسات "ابن العباس" (ت68 هـ) ويعد رائدا من رواد الدراسات اللغوية في النصوص العربية، و"مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) فقد درس دلالة الكلمات،و"الفراء" (ت 207هـ) و" أبو عبيدة معمر بن المثنى" (ت215 هـ).

لمعرفته الدقيقة باللغة العربية وعلومها، فقد كان فقيهاً منشغلاً بقضايا التشـريع ومـا يحتاجه من وضع للضوابط والقوانين المختلفة ولذلك تجاوز اهتمامه البحث عن البيان في وجهه البلاغي إلى الاهتمام "بالمضامين التشريعية في الخطاب القرآنـي وبكيفيـة استخلاص هذه المضامين واستنباطها وكان بذلك أول واضع لقوانين تفسير الخطـاب البياني ومن ثم المشروع الأكبر للعقل العربي"[32].

يعرف الشافعي البيان قائلاً:" البيان اسم جامع لمعانٍ مجتمعة الأصول متشـعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها مما نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيداً لبيان مـن بعـض مختلفة عند من يجهل لسان العرب[33].

فقد اتخذت كلمة "البيان" هنا شكلاً آخر، فخرجت من دلالتها المعجمية المحدودة التي تمثّل وضعها الأول إلى الدلالة في وضعها الثاني التي رفعتهـا إلـى مسـتوى "المفهوم" الذي له قوة الدلالة على معانٍ مجتمعة الأصول متشعبة الفروع، أما الأصول فثابتة كما تحددها الأوامر والنواهي والأحكام، وأما الفروع فمتشعبة.

إن هذه الأصول المجتمعة والفروع المتشعبة هي بيان تحمله رسالة أو خطـاب نحو سامع بينه وبين مرسله قدر مشترك من الأفكار والمعلومات يضمن حصول الفهم والإفهام بينهما فقد استثمر الإمام الشافعي أساليب التعبير وطرائقه في اللغة العربيـة لدراسة مفهوم "البيان" في القرآن الكريم ووضع قوانينه وتفسيره وتحديـد مسـتوياته ودرجاته. ولذلك نجده يستعرض بعض وجوه "سعة اللغة العربية "في التعبير فيقول:

"إنّما خاطب ا ُ بكتابه العرب على ما تعرفه من معانيها، وكان مما تعرفه مـن معانيها اتساع لسانها وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد منه العـام

32)-محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص، 22، وانظر كتابه الآخر: تكوين العقل العربـي، بيروت دار الطليعة، 1984، الجزء/1 الفصل/5.
33)-محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة،تح، أحمد شاكر، القاهرة، الأبيـاري الحلبـي، 1940، ص، 20. وانظر: محمد عاب الجابري، بنية العقل العربي، ص، 22.

الظاهر ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدلّ على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاماً ظاهراً يراد به الخـاص، وظـاهراً يعرف في سياقه أنّه يراد به غير ظاهره.فكل هذا موجود علمه فـي أول الكتـاب أو وسطه أو آخره.

وتبتدئ (العرب) الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عـن آخـره، وتبتـدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم الشيء بالشـيء تعرفـه بـالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها، وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي الواحـد بالمعاني الكثيرة"[(34)].

يعد هذا النص نصاً مفتاحاً دالاً على دراية الإمام الشافعي باللغة العربية وأصالة خطابها، وما يميزه من خصوصيات بنوية ووظيفية فـي التعبيـر عـن الأغـراض المختلفة، وأهم خاصية فيه تتمثّل في **الاتساع الناتج عن سنن العرب في كلامها.** وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الاختلاف في البيان والتعدد في التفسير ووجوه التأويل. ونظراً لأن العقل العربي عقل بياني أكثر منه برهاني وأن معجزة العرب "بيانية لا برهانيـة" فإن الخطاب الإلهي "يتّسع لإمكانات لا تستنفذ ويغدو الملتقى الذي تتدفّق منه الدلالات. ومن هذه الوجهة يصبح التأويل فعل تعدد وتشتّت على رأي "علي حرب" بينما القرآن الكريم قد جاء للناس كافة ويشكّل وحدة توحيد في دلالته الأصلية؛ فقد قضى على تعدد الأوثان وعمل على إذابة القبيلة وحصر الولاء في ا وحده –سبحانه وتعالى- وهـذا في حد ذاته فعل توحيد. وكما توصف الحضارة العربية بأنّها حضارة الـنص فإنّهـا توصف أيضاً بأنّها حضارة التوحيد.

ونسجل هنا ميزتين ميزتا حديث الإمام الشافعي عن البيان:

34)-الإمام الشافعي، الرسالة الشافعية، ص،52، نقلا عن محمد عابد الجابري، بنية العقل العربـي، ص، 24.

أما **الميزة الأولى**: فقد استعمل فيها مصطلحين أساسين هما:

الأصول و الفروع التي تتشعب عن الأصول، وبذلك لا يكـون الاخـتلاف أو التعدد في الأصول لأنّها ثابتة وإنّما يكون في الفروع ويكون التأويل تبعاً لذلك عامـل إثراء وتنوع وتجدد في القراءة بما يحقّق عامل التوحيد.

وأما **الميزة الثانية**: فتتعلّق بأساليب التعبير في اللغة العربية، إذ لابد من معرفتها والتفطن لخواص تراكيبها لسن القواعد والقوانين الخاصة بتفسير الخطـاب المؤسـس لتلك الأصول والمعبر عنها.

إنّهما ميزتان مرتبطتان أسس عليهما الشافعي "لنظرية أصولية بيانية تهتم بتحديد أصول التفكير ومنطلقاته وآلياته اهتماماً بدراسة أنواع الألفاظ والعبارات مـن حيـث دلالتها على المعاني..."[35]

3 –2-2- مفهوم النص من مفهوم البيان عند الجاحظ:

إذا كانت مسألة البحث في البيان قد تم طرحها قبل "الجاحظ" وإذا كان الشـافعي قد تجاوز مستوى الملاحظات الجزئية المتعلّقة بالاتساع في الكلام العربـي وأرسـى الأسس النظرية المتعلّقة بقوانين تفسير الخطاب/النص مستثمراً المعطيات النصية فإن "الجاحظ عمرو بن بحر" يعد حدثاً فريداً من نوعه في تاريخ بحـوث اللغـة العربيـة وبخاصة ما تعلّق منها بمفهوم البيان الذي تجاوز به شروط تفسير الخطاب والقـوانين المتحكّمة فيه إلى محاولة تحديد شروط إنتاج الخطاب.

عاصر "الجاحظ" الإمام "الشافعي" ومات بعده بزهاء خمسين (50) سنة فقد ولـد سنة (150هـ) وقيل سنة(159هـ) وتوفي سنة (255هـ) مما يعنـي أنّـه عمـر طويلاً، وتميزت الفترة التي عاش فيها بتحولات ومنعرجـات حاسـمة فـي تـاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

---

35)-محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص، 24.

إن ما ميز "الجاحظ" هو وعيه "الحاد بضرورة أن تقوم الكتابة والكتـاب بـديلاً حضارياً عن اللفظ والذاكرة"[36] وهي نظرة منهجية على قدر كبير من الدقة والعمـق دعا من خلالها إلى إحلال الكتابة محلّها الحقيقي وإعطائها الأهمية الكافية حتى لا تبقى الثقافة العربية ثقافة شفوية غير قادرة على صيانة الفكر وتخليـد المـآثر لأن آفـات النسيان تذهب بأكثر العلم ولأن الأفكار تتعرض للتحريف والتبديل **ثم إن الكتابة هـي المؤسسة** التي من خلالها نقوم بنقل الأفكار وتبادلها في الزمان والمكان وهي الحامل الناقل لأدلّة الوعي في الإنسان والأمة.

أورد "الجاحظ" – في هذا الشأن- هذا النص:" وقد قال "ذو الرمة" "لعيسـى بـن عمر"، اكتب شعري، فالكتاب أحب إلي من الحفظ، لأن الأعرابي ينسى الكلمـة وقـد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام"[37] وقوله: لولا الكتب المدونة والأخبـار المخلّـدة (...) لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان على سلطان الذكر"[38] .

فقد تعمق "الجاحظ" في هذه المسألة وبخاصة في المقابلة بين اللفظ وبين "الكتابة" أو بين "المشافهة وبين الكتابة" بما "ينبئ بتحول في الثقافة العربية ذاتهـا مـن ثقافـة عشائرية لا يعدو نفعها أهلها لا حامي لها إلاّ ثقة رواتها ونقلتها وهذا الحاجز رقيق لا يصمد دائماً أمام النـزعات والنـزوات ولذلك فهـي معرضـة للإغـارة والسـطو والوضع والتهافت إلى ثقافة ملائمة للمجتمع " المدني" الجديد المقـام علـى مركزيـة السلطة والنفوذ الساعي إلى نشر نمط ثقافي موحد بين أشتات الأجناس والثقافات يعتمد الحقيقة البينة والحجة الموضوعية"[39].

---

36)-حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص،138.
37)-الجاحظ، الحيوان،41/1، ط/2، تح، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1996.
38)-المرجع نفسه41/1.
39)-حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص، 140،139.

يبرز لنا – بناء على هذا –حضور العامل الاجتماعي في دراسة الـنص عنـد "الجاحظ" "فلم يخلق ا تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه"[40] فهو يؤكّد وظيفـة اللغة في المجتمع وهي "ربط حبل الأسباب بين أفراده"[41]فهي وسيلتهم للتعبيـر عـن حقائق حاجاتهم ليتم الاهتداء إلى "مواضع سد الخلّة ورفع الشّبهة ومداواة الحيرة"[42]، فالحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة واكدة وراهنة ثابتة"[43] فهناك ارتباط بين اللسان والإنسان في تولد حاجاته والتعبير عنها إذ لا يتم تغطيتها خارج حدود اللغة.

فقد عد "الكتابة" بمنزلة المؤسسة الاجتماعية في نقـل المعرفـة عبـر الزمـان والمكان وتبليغها وترسيخها في الأذهان وفي ذلك تجاوز لثقافة الجمع والحفظ والرواية التي لا تتجاوز سامعها إلى ثقافة القراءة والتصنيف والتحليل الأمر الذي من شأنه نقل الثقافة العربية إلى مستوى جديد تحل فيه الوثيقة المكتوبة محلّها في التعامل المؤسسي بين القوم؛ أي بين العرب وغيرهم من الأقوام والمجتمعات.

كان "الجاحظ" على وعي كامل بأحوال العرب في عصره من ناحيـة الاطـلاع على الحضارات الأخرى فكما جاء في الحيوان: لقد كانت العرب "آخر مـن ورثهـا ونظر فيها"[44]. ولذلك كان همه أن تفك شرنقة التقوقع على نفسها بـأن تأخـذ مـن حضارات الأقوام الآخرين وتعطيها وسيلة ذلك الكتابة بل أكثر مـن ذلـك، الكتابـة التحليلية التي تتجاوز بنية الشعر "لأنّه شكل أدبي ومسلك في التعبير تعطّل بنيته نقلـه إلى لغات أخرى..."[45].

40)- الجاحظ، الحيوان43/1.
41)- نفسه. 41/1.
42)- نفسه1 / 41.
43)- نفسه41/1
44)- نفسه54/1.
45)- حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص، 142.

يعد مفهوم البيان عند "الجاحظ" متطوراً جداً من الناحية النظرية ولعلّه يلتقي بمفهوم النص من الوجهة الدلالية فكلاهما يدلّ على الظهور فضلاً عن أن "الجاحظ" قد وجهه توجيهاً بيداغوجياً وبخاصة في "الحيوان" و"البيان والتبيين" وهما أهم ما كتب.

أورد"الجاحظ" في هذا الشأن، نصاً من أهم النصوص التي كتبها في "الحيوان"[46] ثم أعاد كتابته في "البيان والتبيين"[47] وهو:" قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتعلّقة بخواطرهم والحادثة عن أفكارهم مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره وإنّما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتّك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك لموضع[...] وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات."[48]

---

46)-الحيوان33/1.

47)-البيان والتبين75/1 تح، حسن السندوسي، دار المعارف، تونس،1990.

48)-أوردت هذا النص طويلاً كما أوردت نصوصاً أخرى قبله وسأورد نصوصاً بعده نظراً لأهمية تلك النصوص وحتى يأخذ القارئ صورة واضحة عن المسائل المختلفة، ثم إن هذا يعد من النصوص المشهورة عند "الجاحظ".

إن المتأمل لهذا النص يجده يشكّل أساس نظرية الكلام عند "الجاحظ" بل ونظرية المعرفة كذلك مما يدخل النص في إطار تصور لساني فلسفي عام يصـلح أن يكـون بحثاً من بحوث الدراسة النصية؛ ذلك أن "الجاحظ" عندما تكلّم عن البيان كـان فكـره متجهاً بلا شك نحو النص باعتباره وسيلة تربط بين متكلّم وسامع مـن أجـل الفهـم والإفهام أو المفاهمة"[49].

نستخلص من هذا النص الأفكار الآتية:

- المعاني قائمة في صدور الناس.
- متصورة في أذهانهم.
- مختلجة في نفوسهم.
- متّصلة بخواطرهم.
- حادثة عن فكرهم.

وهي خمس صفات تتم على التدرج؛ فهي تقوم في الصدور ثم تُتصور في الذهن ثم تختلج في النفس ثم تتصل بالخاطر ثم تحدث عن الفكر.

وهي في كلّ ذلك تتميز بكونها:

- مستورة خفية.
- بعيدة وحشية.
- محجوبة مكنونة.
- موجودة في معنى معدومة.

وإن الذي يبث الروح في تلك المعاني ذكرها والإخبـار عنهـا واسـتعمالها أي الإبانة عنها وتوظيفها.

49)-انظر: محمد الصغير بناني، مفهوم النص عند المنظرين القدماء، مجلة اللغة والأدب، العدد/12، قسم اللغة العربية، جامعة الجزائر، ص،51 وما بعدها، 1997.

وهذا يوحي بأن البيان في حقيقة الأمر هو النص ذاته الذي يؤدي ظهوره إلى نقل المعنى من ضمير المتكلّم حيث يتم التركيب إلى ضمير المخاطَب حيث يجري التفكيك.[50]

ثم إن لهذا البيان أو النص وجهين: وجه ثابت مكتوب مغلق بين نقطة بداية ونقطة نهاية، ووجه ظاهر شاهد هو الذي يجعل الوجه الأول يتحقّق؛ فيتم كشف تلك المعاني ونقلها من نطاق الكمون إلى نطاق التحقّق ومن مستوى الموجود بالقوة إلى مستوى الموجود بالفعل، وبعبارة اللسانين من الملكة إلى الإنجاز، وعلى ذلك يكون البيان هو كشف الستر وهتك الحاجب أو **كشف المعنى** وهو المرحلة الثالثة في تكوين البيان بعد طلاقة اللسان وحسن اختيار الألفاظ؛ أي ما ينتظم بالألفاظ من الكلام الذي "يجيء على مجاري كلام العرب الفصحاء"[51].

ثم يبين "الجاحظ" أن البيان يتجسد بخمسة أصناف لا تزيد ولا تنقص وهي: اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة.

لم يكن "الجاحظ" مهتماً بفهم كلام العرب وحسب، وإنّما كان يعنيه بالدرجة الأولى "إفهام السامع وإقناعه وقمع المجادل وإفحامه فيضع السامع وأحواله النفسية الاعتبار الكامل[52] لأن "نشاط القائل على قدر فهم المستمع"[53]، فإذا كان المستمع ذا ملكة جيدة في الفهم والتحليل فإن ذلك يجعل المتكلّم في حالة جيدة لتبليغ خطابه في أحسن الظروف وبكيفية فيها من الحيوية والنشاط ما يضمن "حسن الحديث ونفع المؤانسة"[54].

50)- انظر: محمد الصغير بناني، المرجع السابق، ص54.

51)- الجاحظ، البيان والتبيين113/1.

52)- انظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص25.

53)- الجاحظ، البيان والتبيين30/2.

54)- نفسه، ص30/2.

فقد تميز حديث "الجاحظ" عن البيان بأن كان من خلال نظرة شـاملة للتواصـل فبين العملية كيف تتم انطلاقاً من المرسل أو المتكلم في الإرسـال والبـث وانتهـاء بالسامع أو المرسل إليه في عملية التلقي والتفكيك والتحليل والفهم، ولم ينس الإشـارة إلى أنواع التواصل والتبليغ اللغوي وغير اللغوي، فالتواصل اللغوي يمكن أن نقسـمه قسمين هما: المشافهة والتحرير، فأما المشافهة فتمثّل الجانب المنطـوق مـن اللغـة واستعمالها في مختلف مستويات التخاطب اليومي العفوي بلا صنعة أو تكلّـف وهـو بذلك يمثّل الأساس الأول في عملية التخاطب، فهو الأصل والمحرك الـرئيس لهـا. ونشير إلى أن المشافهة تتعدد فيها القنوات الموصلة والأحوال؛ فالمشافهة وجهاً لوجه تشكّل الجوانب الصوتية وما يصاحبها من إشارات وتعابـير للوجه وكلّ مـا يتعلّـق بالحال الذي يتم فيه إحداث الخطاب، شاهد حال عليها.

إن الإقبال بالوجه له دور مهم في التعبير عن القصد وتبليغ المراد والتفاهم بـين الناس ولا يكفيك السماع إلى محدثك، وإنّما يجب أن يكون هنالك جمع بـين السـماع والمشاهدة للإحاطة بمعرفة ظروف الكلام ومقاماته والتمكن من مشاهدة الحال التـي تصحب الخطاب كما يحدثه صاحبه، وقد نص "الجاحظ" على ذلك بقولـه: "... كـان مطرف بن عبد الرحمن يقول: لا تُقْبِل بحديثك على من لا يقْبِل عليك بوجهه، وقـال عبد ا بن مسعود: حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم وأَذِنُوا لك بأسماعهم [ولحظُوك بأبصارهم] وإذا رأيت منهم فَتْرةً فامسك"[55].

كما قابل الجاحظ" بين الإشارة واللفظ فأشار إلى أنّها "نعم العون هي له، ونعـم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وتغني عن الخط"[56].إن الإنسان وهو يتلفّظ بالكلام يحدث إشارات ضرورية في التفاهم ولا يمكن لأي منّـا أن يـتكلّم ولا يحدث حركات أو إشارات معينة مصاحبة لكلامه كوسيلة من وسائل إيضاحه، وتنوب

55)-البيان والتبيين 91/1.

56)-نفسه 79/1.

الإشارة عن اللفظ أحياناً فيستطيع المتكلّم الإبانة عن غرضه والتفاهم مع غيره بواسطتها دون الحاجة إلى لغة "فمبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت"(57).

وهي من جهة أخرى تغني عن **الخط** فلا يتم التبليغ بالكتابة وإنّما بالإشارة إن اقتضت الضرورة. فيكمن دور الإشارة في كونها وسيلة أساسية تمكّن المتخاطبين من تبليغ أغراضهم والتفاهم فيما بينهم ومعرفة مقاصدهم الدقيقة جداً وعلاقتهم الحميمة "ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتّة"(58).

يدلّ هذا على حاجة النص إلى وسائل تعبيرية أخرى غير لغوية فقد قال أيضاً: "فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين وبالحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف"(59)

يتطابق هذا القول أو يكاد مع ما كتبه قبل ذلك في الحيوان وهو قوله: "فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب وكسر الأجفان ولي الشفاه وتحريك الأعناق وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل، تجاه عين الناظر"(60). وكل هذه إشارات معبرة تشكّل وسائل تبليغ غير لغوية تستعمل في التخاطب حسب مقتضى الحال ومستدعيات الضرورة.

وأما التواصل الكتابي فيمثل المظهر الثاني للغة بعد مظهر الصوت وهو محاولة للتعبير عن اللغة في واقعها الصوتي ومحاولة لنقل الترجمة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية يمكن قراءتها وإذا كان التواصل الشفوي مقصوراً على القريب الحاضر في أغلبه فإن التواصل المكتوب مطلق في الشاهد والغائب يتيح مجالاً أوسع

57)-نفسه 80/1.

58)-نفسه 79/1.

59)-البيان والتبيين 79/1.

60)-الحيوان 60/1.

للإعداد الذهني وفرصة أكثر للتفكير من الكلام المنطوق الجاري فوراً وكلّ هذا يتطلّبه النص ويتم من خلال النص.

ولابد من الإشارة إلى أن "الجاحظ" لم يقصر البيان على العرب وحدهم نستشفّ ذلك من قوله: "والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان وبذلك تفاخرت العـرب وتفاضلت أصناف العجم".

وما يمكن قوله عن "الجاحظ" أنّه نظر إلى مفهوم البيان في علاقته بمفهوم التبليغ والتواصل بأنواعه نظرة ثاقبة صائبة جداً وحاول الإحاطة بها من جميع جوانبها ومـا تطرق إليه في القرن الثالث الهجري فيه مما توصل إليه الدارسون المحـدثون أمثـال "رومان ياكبسون ROMAN JACKOBSON"(6189م/1982م) في تفسيره لعناصـر التواصل و"بنفينست EMILE BENVENISTE"(1902م/1976م) فـي حديثـه عـن **نظرية التلفّظ وتحليل الخطاب** و"ديـل هـايمس DELL HYMES" عـالم اللسـانيات الاجتماعية في حديثه عن أثر اللغة في التواصل الاجتماعي... وغيرهم مما يصـلح بحثاً مستقلاً بنفسه.

وكل هذا يعد فتحاً جديداً في الدراسات الغربية في وقتنا حصرنا نتلقاه مبهـورين نتسابق إلى توظيفه في خطاباتنا اللسانية والنقدية والتعليمية.

3 –3 مفهوم النص من مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

نشير إلى أن مفهوم النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" له وجوه عديدة منها مـا يتعلّق بالنحو؛ فهو مرجعيته الأساسية ومنها ما يتعلّق بعلم الدلالـة والبلاغـة وعلـم الأسلوب ومنها ما يتعلّق باللسانيات، ولذلك فإن الدارسين كثيراً ما يوظّفـون مفهـوم النظم ويتحدثون عنه بحسب المجال المعرفي الذي يشتغلون به، نشـأ مفهـوم الـنظم وترعرع في بيئة عربية إسلامية مرجعها الوحي جعلت "إعجاز النص القرآني" بـؤرة اهتمامها فانصب البحث في هذا الإطار على المفاضلة بـين اللفـظ والمعنـى وهـل

الإعجاز يكمن في اللفظ؟ أم في المعنى؟ أم فيهما معاً؟ وإذا كانت المفاضلة بين اللفظ والمعنى تعلي من شأن أحدهما دون حرج بالنظر إلى كلام العرب فإنّه بالنسبة لدراسة الإعجاز كان لابد من مراعاة جانب المعنى في النص القرآني إلى جانب اللفظ، يقول في ذلك "أبو هشام الجبائي"(ت 321هـ): "إنّما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ولابد من اعتبار الأمرين..."[61].

وقال "أبو حيان التوحيدي" (ت 414هـ): "ومن استثمار الرأي الصحيح في هذه الصناعة الشريفة علم أنّه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ، وإنّه متى فاته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر... وهذا لأن المعاني ليست في جهة والألفاظ في جهة بل هي متمازجة متناسبة والصحة عليهما وقف... ولأن حقائق المعاني لا تثبت إلاّ بحقائق الألفاظ، فإذا تحرفت المعاني فكذلك تتزيف الألفاظ، فالألفاظ والمعاني متلاحمة متواجشة متناسجة"[62].

إن هذا التمازج والتناسب والتلاحم والتناسج بين المعاني والألفاظ هو الوسيلة التي بها يتم النظم أو إن شئنا قلنا: يحدث الخطاب وينتج النص، لأن النص عبارة عن شبكة من العلاقات بين الألفاظ ومعانيها في بناء متناسق منسجم، ولئن ارتبط اسم "عبد القاهر" بنظرية النظم، فإن جذورها تعود إلى أعماق بعيدة في التراث العربي، وعلى الأخص في التراث اللغوي والبلاغي ولاسيما ما تعلّق منه بإعجاز النص القرآني فقد وردت كلمة "نظم" عند كثير من الدارسين العرب القدامى قبل "عبد القاهر" منهم: "بشر بن المعتمر"(ت120هـ) والعتابي(ت213 هـ) و"الجاحظ"(ت255 هـ) و"ابن قتيبة" (ت 276هـ) و"أبو بكر الصولي" (ت 335هـ) و"الرماني" (ت 386هـ) و"الخطابي" (ت 388هـ) و"الباقلاني" (ت 403هـ) وبخاصة "القاضي عبد الجبار أبو الحسن" (ت 415هـ) فقد كانت تحليلاته وآراؤه عن "النظم" عالية المستوى حتى إنّه ليخيل

61)-انظر: محمد عابد الجابري، المرجع المذكور سابقا، ص، 79.

62)-نقلاً عن المرجع نفسه،ص، 80.

إلينا أنّه لا يمكن أن ننسب لعبد القاهر شيئاً آخر غير الشرح وتقديم الأمثلة فقد كـان "القاضي عبد الجبار "حاد الذهن قوي الخاطر في تناوله لهذا المفهوم وفي دراسته للغة بشكل عام إذ يعد أول من أرسى نظرية للخطاب قائمة بذاتها شاملة لكـل العناصـر المتعارف عليها في الدراسات التبليغية والتخاطبية في عصرنا، يظهر ذلك واضحاً في كتابه الفريد من نوعه "المغنى في أبواب التوحيد والعدل" الذي يصلح أن يكون بحثـاً مستقلاً بنفسه، وهذا يعني أن مفهوم النظم مفهوم أصيل في التراث اللغـوي العربـي والمعرفة البيانية، استثمر فيه "عبد القاهر" "معطيات هذا الحقل مسـتجيباً لاهتماماتـه ومعبراً عن مرحلة من مراحل نموه، نمو الوعي بالذات... وقد جاءت هذه النظريـة تتويجاً لتيار فكري نشأ وتطور وأخذ يتبلور ويتميز من خلال طرح نفسه كـ "أنـا" عربي إسلامي بياني بديل عن الآخر "اليوناني""[63].

انطلق "عبد القاهر الجرجاني" من أغراض المتكلم وأحوال الخطاب وما يترتّـب على ذلك من كلام يتميز بخواص تركيبية وموضعية –بالنسبة للألفاظ- تـتلاءم مـع المقامات التي تقال فيها، فنفذ إلى صميم الظاهرة النصية من خلال نظرية النظم وهو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله[64]، وهـو أن "ترتب المعاني أولاً في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"[65]. ولعل أوفى العبارات وأهمها عن النظم هي[66]:"واعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضـع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا

63)-المرجع السابق، ص،81.

64)-انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص، 403.

65)-نفسه،ص، 405.

66)-أوردنا هذا النص طويلاً لكونه بدا لنا من قراءتنا لدلائل الإعجاز، أن عبد القاهر الجرجاني قـد لخّص فيه القضايا المتعلّقة بالنظم ثم راح يفرد لكل قضية أبواباً وفصولاً ويحلّلها مستشـهداً بالشـعر والقرآن الكريم وكلام العرب، أي إن هذا النص في دلائل الإعجاز نص مفتاح إن جاز القول.

تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبـر إلـى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيـد المنطلق والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرج فأنـا خارج، وأنا خارج إن خرجتَ، وأنا إن خرجتَ خارج. وإلى الحال في الوجوه التـي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، وجـاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي لـه. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه نحو: أن تجيء بـ"ما" فـي نفـي الحـال وبـ"لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ"إن" فيما يترجح بين أن يكـون وأن لا يكـون، وبـ"إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقّه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء" وموضع "الفاء" من موضع "ثم"وموضع "أو" من موضـع"أم" وموضـع "لكـن" مـن موضـع "بل"ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كلّـه وفـي الحـذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلاً من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له"[67].

نلاحظ في هذا النص ثلاثة مصطلحات هي :

الوجوه والفروق والموضع، تدلّ هذه المصطلحات على أن اللغة لها إمكانـات متعددة للتبليغ مع مراعاة الفروق في المعنى بين إمكانية وأخرى وهو أمر لا يتأتى إلاّ للخبير بأسرار اللغة فيستطيع معرفة هذه الأسـرار وظروفهـا ويضـعها موضـعها الحقيقي.

67)-دلائل الإعجاز،ص،94،95.

بناء على هذا راح "عبد القاهر" يبين لنا طرائق الخطاب أو التبليغ المثير الفعال من خلال المعرفة بخصائص اللغة في الإسناد والوجوه والفروق والمواضع وما يصحبها من خصوصيات في المعنى توافق المقام الذي يقتضيه المقال، وما يترتّب على ذلك من دلائل فقد أدرك "عبد القاهر" أن نظرة النحاة إلى العلاقات الإسنادية لا تفي بالغرض، فمن ذلك تقسيم العبارة إلى قسمين: **المسند والمسند إليه** وأن الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر وما زاد على هذين الركنين فهو فضلة عن الجملة"[68]، ومن ثم راح يبين لنا أهمية هذه العلاقات في المعنى فكل عنصر من عناصر الإسناد له دور في التعبير عن الغرض، **فالمسند** إما أن يكون اسماً أو فعلاً، وقد يكون نكرة أو معرفة وربما يأتي متقدماً أو متأخّراً وأحياناً يفْصل بين المسند والمسند إليه بضمير الفصل ولكل من ذلك معنى يختلف عن الآخر، **والشرط** له صوره المتعددة، وكذلك الشأن **للحال** فقد يكون مفرداً أو جملة اسمية أو فعلية مقروناً "بالواو" أوبـ"قد" أو بهما، ولكل موضعه من حيث ينبغي له.

والحروف لكل منها معناه الخاص الذي يتميز به عن غيره، فـ"ما" و"لا" كلاهما للنفي ولكن "ما" للحال و"لا" للاستقبال، **والفصل والوصل** له أهميته القصوى ويعتمد على فهم العلاقات النحوية ووظائفها في النص أو في الخطاب ويعد الفصل والوصل من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى الصواب فيه إلاّ الأعراب الخلّص الأقحاح.

إن "عبد القاهر" لا يقف عند حدود الحكم بالصحة والفساد ولذلك تجاوز الوظيفة الإعرابية إلى وظيفة المعنى لأن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلّهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية[69] أما وظيفة المعنى فتختلف بالنظر إلى

68)-انظر: د/تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، ص، 120،وما بعدها، دار الحوار، سورية،1983.
69)- المرجع نفسه،ص، 358.
إن ما أشار إليه "عبد القاهر" نلاحظه بوضوح في حياتنا العلمية والعملية حيث نجد أناساً كثيرين يعرفون قواعد النحو والصرف بحذافيرها، ولكن تستعصي عليهم المسائل المتعلّقة بالتحليل لأنّها تتطلّب إعمال الفكر والروية وهذا – في الحقيقة- نتيجة مناهجنا التعليمية التي لم تهتم بمعاني النحو ودقائقها وأسرارها من خلال النصوص بقدر ما اهتمت بتحفيظ القواعد النحوية تحفيظاً صماً والتركيز على الإعراب فنجد المتعلّم يعرف القاعدة عن ظهر قلب ولكن يخطأ كثيراً في الكتابة ناهيك عن الممارسة للحديث.

السياق اللغوي، الذي توجد فيه ولظروف النص//الخطاب التي تحيط بها، ولذلك تحتاج إلى حدة الذهن وقوة الخاطر. فمن يتأمل هذا النص لـ"عبد القاهر" يجده نصاً مركزياً في الدلائل تطرق فيه إلى مختلف المسائل اللغوية التـي تتعلّـق بالدراسـة النصـية وبخاصة أنظمة الإحالة وأنواعها، فنجد ما يخص الإحالة النصية، أي إلى داخل النص سواء أكانت إحالة قبلية أم إحالة بعدية، ونجد أيضاً ما يخص الإحالة المقامية أي إلـى خارج النص مما له علاقة بأحوال القائل أو صاحب النص.

3-3-1 رأي عبد القاهر في اللفظة:

تبدو نظرة "عبد القاهر" للفظة من خلال قوله:

"وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لإخوانها"(70) نستشفّ من قول "عبـد القاهر" رداً صريحاً على الذين يهتمون باللفظة ويعدونها مكْمن الفصاحة(71) وهـي لا تكمن في اللفظة منفردة، وإنّما في تشابك علاقاتها، ومعانيها مع معاني جاراتها.

إن اللفظة منفردة لها معنى محدود وأفق ضيق لا يتعدى المعجم أما إذا كانت مع أخواتها في سياقها اللغوي اللازم وبحسب مواضعها في النظم فلها إمكانـات متعـددة للتعبير عن وجوه المعاني ولذلك ينبغي النظر إليها قبل دخولها في التأليف وقبـل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلام إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً(72)ليـتم -بعد ذلك – اختيار الكلمة المناسبة للنظم بحسب الموضع الذي يقتضيه المقام، فـ"لا

---

70)-دلائل الإعجاز، ص،58.

71)-يعد دلائل الإعجاز رداً شديداً من "عبد القاهر"على الذين رأوا الفصاحة في اللفظة، فقـد قـال:" واعلم أن الذي هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ، أنّهم قوم أسلموا أنفسهم إلى التخيل، وألقوا مقادتهم إلى الأوهام، حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل، ودخلت بهم من فحش الغلط في كل مدخل، وتعسفت بهم في كل مجهل، وجعلتهم يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القـول بكـل محـال. ويقتحمون في كل جهالة ... ومن أفضت به الحال إلى هذه الشناعات ثم لم يرتدع ولم يتبين أنّـه علـى خطأ، فليس إلاّ تركه والإعراض عنه "،انظر: دلائل الإعجاز، ص، 377،337.

72)-نفسه، ص، 57.

يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكـون لصاحبتها[73]، واللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ولكنها لا تكون كذلك فـي مواضع أخرى تبعاً للأغراض التي يوضع لها الكلام، وعليه فإن الفضـل والمزيـة يكونان بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم[74].

وجملة الحديث إنّه لا يمكن أن يتعلّق الفكر بمعاني الألفاظ منفردة مجـردة مـن معاني النحو ومن ثم فإن " النظم هو توخي معاني النحو في معاني الكلام وأن توخيها في متون الألفاظ محال"[75].

وما ينبغي أن نعلمه أن "عبد القاهر" لا يلغي اللفظة تماماً، ولا يقدم أهميتها فـي تعلّق الفكر بها، وإنّما يعني أن لا يكون ذلك فيها مجردة عن معاني النحو ومنطوقاً بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو، **فدلالة اللفظ** لها أهميتها في التعبير عـن الأغراض وتبليغ المقاصد بتظافرها مع **دلالة الحال ودلالة المعنى** فلا مزية لهـا إلاّ بارتباطها معها.

فدلالة اللفظ "dénotation" هي التي يقتضيها اللفظ بالوضع، ويصل منها المـتكلّم إلى الغرض باللفظ وحده، أي إنّها تتعلّق بالحقيقة لا بالمجاز.

ودلالة المعنى "connotation" هي التي لا تتم باللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضعه في اللغة، ثم تتولّد عن ذلك دلالة ثانية تصل منهـا إلـى الغرض بالكناية والاستعارة والتمثيل، أي إنّها تتعلّق بالمجاز لا بالحقيقة والمجاز أبلغ من الحقيقة، وهذه الدلالة هي التي يسميها "عبد القاهر"**معنى المعنى**" و"**دلالـة الحـال**" وهي التي يقتضيها حال الخطاب "situation de discoure".

73)-نفسه، ص، 246.
74)-المرجع السابق، ص،99.
75)-نفسه،ص،229.

وأوفى العبارات التي تدلنا على هذه الدلالات عند "عبد القاهر" قوله: " وإذا قـد عرفت هذه الجملة فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعنـي بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنـى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"(76).

والمتأمل في هذا النص يجد "عبد القاهر" قد وصل إلى مستوى متقدم راقٍ فـي دراسته لأنواع الدلالات ونفذ إلى صميم ما يكمن في النص وهو معنى المعنى وسـبق بقرون عديدة كل من "ريتشاردز" و"أوجدن" في كتابهمـا "معنـى المعنـى "-باللغـة الإنجليزية- "the meaning of meaning" ونظراً لأن الأدب مداره على المجاز والكناية فإن معناه يصبح مجالاً واسعاً للنظر التأويلي"(77).

ووضح "عبد القاهر" أيضاً أن المعاني القائمة في النفس أو بتعبير آخر خـوالج المتكلّم النفسية هي التي توجه خطاباته الوجهة المناسبة وتتحكّم فيهـا وتكيفهـا بـأن تجعلها مناسبة لما تقتضيه الأحوال والمقامات وتمكّن المخاطِب من التفطّن لخـواص تراكيبها ومواضع كلمها وذلك " أن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتّب معانيهـا فـي النفس"(78).

نفهم من هذا أن الألفاظ تتبع المعاني في مواقعها، و"إذا وجب لمعنى أن يكـون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق" (79). وعلى هـذا فالفائدة من الكلام تحدث من بعد **التأليف** لا من اللفظة منفردة دون أن ينظر إلى حالها مع غيرها، وإنّما من المعاني الحاصلة من مجموع الكـلام التـي هـي أدلّـة علـى الأغراض، فإذا كانت المعاني قوية استوجبت استعمال ألفاظ قوية مصداقاً لقول "ابـن

76)-نفسه،ص، 251.
77)-يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، ص، 135، دار الأمان، القاهرة، ط/1994،1.
78)-دلائل الإعجاز،ص،70.
79)-نفسه،صن68.

جني"(ت 392هـ) "إن قوة المعنى تتطلّب قوة اللفظ"[80]. وبناء عليه **فإن الأساليب الرصينة تستدعي هي الأخرى ملامسة المعاني العظيمة.**

ونقرأ نصاً آخر لـ"عبد القاهر الجرجاني" مفاده:"أن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها وأنّه كما يفضل هناك النظم النظم والتأليفُ التأليفَ والنسيج النسيج والصياغةُ الصياغةَ ثم يعظم الفعل وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره ... وحتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع... ولا يكفي أن تقولوا إنّه خصوصية في كيفية النظم ... حتى تصفوا تلك الخصوصية... كما يذكر لك عمل من تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصيغة أو يعمله بين يديك حتى ترى عياناً كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء وما يذهب منها طولاً وما يذهب عرضاً وبما يبدأ وبما يثنى وبما يثلّث وتبصر بالحساب الدقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم منه مكان الحذق وموضع الأستاذية"[81].

نستنتج من هذا النص الصورة التي عقدها "عبد القاهر" للتشبيه بين **النظم والنسج،** فكما تنتظم الخيوط في آلة النسج فكذلك الشأن بالنسبة للألفاظ تنتظم في النص، وكما تذهب الخيوط طولاً وعرضاً ويتكون المنسوج من تلاقي بعضها ببعض فكذلك الأمر بالنسبة للألفاظ التي تتعالق وتتقاطع أفقياً وعمودياً ليتكون النص من محور التركيب ومحور الاختيار أو الاستبدال أو ما يسمى باللغة الأجنبية "axe syntagmatique et axe paradigmatique" وقد ترجمها الدكتور "محمد الصغير بناني" "بمحور السدي والنير" ووفّق في ذلك-في نظري أيما توفيق- فقد سمى "عبد القاهر" هذا التلاقي أو هذا التعالق أو التقاطع بين المحورين "بمعاقد الشبكة" [82] مستفيداً من بيئته التي كانت صناعة النسيج مزدهرة فيها مثل ما شبه "رولان بارث R BARTH /" نظرية النص بشبكة العنكبوت في زماننا.

80)-الخصائص 3/ 264، تح، محمد علي النجار، دار الكتاب العرب، بيروت، د ت.
81)-دلائل الإعجاز، ص،81. وانظر : محمد الصغير بناني، المرجع المذكور سابقا ص،71.
82)-أسرار البلاغة، ص، 127.

ومحصول الحديث: إن "عبد القاهر استطاع أن يسبر أغوار الظاهرة اللغوية، أو إن شئت قلنا أغوار الظاهرة النصية باهتمامه الواضح بأحوالها وتفكيكها إلى مختلف مكوناتها، وبناء على هذا يمكننا أن نذهب إلى أن نظرية النظم هي – في الحقيقة- نظرية في الخطاب أو النص وأن دلائل الإعجاز كتاب في تحليل النصوص والخطابات وظواهر التبليغ اللغوي، وإن جاز التعبير قلنا: إن دلائل النص موجودة في دلائل الإعجاز.

3-3-3 مفهوم النص في كتاب التعريفات للشريف الجرجاني (ت 816هـ):

عرف "الشريف الجرجاني" النص بقوله:" النص ما ازداد وضوحاً على المعنى الظاهر لمعنى في نفس المتكلّم وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى كما يقال أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي ويغتم بغمي كان نصاً في بيان محبته"[(83)] وأنه "ما لا يحتمل إلاّ معنى واحداً وقيل ما لا يحتمل التأويل"[(84)].

فالناظر إلى التعريف الأول يلاحظ مستويين:

يتعلّق المستوى الأول بالمعنى الظاهر، ويتعلّق المستوى الثاني بزيادة الوضوح على المعنى الظاهر، وتلك الزيادة اقتضاها معنى في نفس المتكلّم يود تبليغه إلى المخاطب.

ومن الشروط الأساسية اللازم توفّرها في إفهام المخاطَب شرط الوضوح ليفهم المعنى المقصود بدقّة دون حاجة إلى تأويل، لأن النص كما أشار "الشريف الجرجاني" في تعريف ثانٍ هو "ما لا يحتمل إلاّ معنى واحداً وقيل ما لا يحتمل التأويل". وهذا يعني أن مفهوم النص عنده ليس هو المفهوم نفسه بالصورة التي هو عليها في ثقافتنا

83)-الشريف الحرجاني، كتاب التعريفات،ص 310، مكتبة لبنان، 1985.

84)-نفسه.

الحالية لأن له معنى واحداً ولا يحتمل التأويل كما جاء في التعريفات(85). ولكنه في الثقافة المعاصرة يكون بحسب نوع المعرفة التي هو منها ويعبر عنها فقد يكون متعدداً إذا كانت المعرفة أدبية مثلاً، ومن ثم يقبل التأويل وتعدد القراءة وقد لا يقبل التعدد إذا كان ينتمي إلى المعرفة العلمية وبخاصة المعرفة العلمية الصارمة الدقيقة.

غير أن"الشريف الجرجاني " يعرف المصطلح "الظاهر" بقوله: "الظاهر هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص"(86).

فقد تحدث صاحب التعريفات هنا، عن المعنى الظاهر وهو الذي يحتمل التأويل والتخصيص في معناه ولعل ذلك يرتبط **بمفهوم البيان ومستوياته** عنده، فقد عرف البيان قائلاً:" هو عبارة عن إظهار المتكلم المراد للسامع"87 "والبيان هو النطق الفصيح المعرب المظهر عما في الضمير"(88) وهو أيضاً "إظهار المعنى وإيضاح ما كان مستوراً قبله، وقيل هو حد الإخراج من حد الإشكال"(89) فلكأنني بالبيان هنا يساوي الكلام الظاهر، فكلاهما يظهر المراد للسامع بالنطق الفصيح والإعراب عن المستور وإبانته، ثم حدد مستويات للبيان وهي:

بيان التقرير ويتمثّل في " تأكيد الكلام فيما يقع احتمال المجاز والتخصيص..."(90).

بيان التفسير:"وهو بيان ما فيه خفاء من المشترك أو المشكل أو المجمل أو الخفي ..."(91)

85)-المطّلع على كتاب التعريفات للشريف الجرجاني يلاحظ أنّه يشبه المعاجم التحليلية " les dictionnaires analytiques" في وقتنا، وهذا يعني أن الثقافة العربية الإسلامية قد كان أصحابها على وعي كبير بالمصطلح.
86)-الشريف الجرجاني،كتاب التعريفات، ص، 147، مكتبة لبنان، بيروت، 1985.
87)-نفسه،ص،38.
88)-نفسه،ص،39.
89)-نفسه.
90)-نفسه،ص،38.

بيـان التغييـر: "وهـو تغييـر موجـب للكـلام نحـو التعليـق والاسـتثناء والتخصيص..."[92]

بيان الضرورة: "وهو نوع بيان يقع بغير ما وضع له لضرورة ما إذ الموضوع له النطق وهذا يقع بالسكوت..."[93]

بيان التبديل:"وهو النسخ وهو رفع حكم شرعي بدليل شرعي آخر"[94]

إن هذه الأنواع من البيان تعد أنواعاً للنصوص، فبالنص يتم التقريـر والتفسـير والتغيير والتعبير بما تقتضي الضرورة حتى إذا اقتضت الصمت، فإن الصمت إذا كان في مكانه عد نصاً يحتاج إلى فك وضعه وتفسير شفراته "décodage" وفهم معناه.

خلاصة الدراسة:

يمكن أن نحدد النص من خلال التفريق بين مستويين في دراسة اللغة: مسـتوى البنية ومستوى الخطاب الذي يعد الكلام حدثاً إعلامياً يتطلّب عناصر كالمتكلم والسامع أو المخاطَب والمعلومات التي يعرفها عن الخطاب والمقام الذي يحدث فيه كل ذلك.

وكذلك يمكن أن نحدد مفهوم النص في التراث اللساني العربي من خلال منظومة مفاهيمية متناسقة منسجمة مثل الجملة والكلام والاتساع في الكلام والبيـان بأنواعـه والخطاب والتبليغ.

وإذا كان النحاة العرب والبلاغيون لم يستعملوا مصطلح "نص" فلأن مفهومه كان مشغولاً بواحد من هذه المصطلحات التي تم ذكرها. وإذا كانوا لم يعبروا بكلمة "نص" صراحة كمصطلح له المفهوم الموجود عندنا والمتعارف بيننا فإنّه- فيما أرى- قد كان قائماً في صدورهم متصوراً في أذهانهم مختلجاً في نفوسهم متصلاً بخواطرهم حادثـاً

91)- نفسه،ص،38.
92)- نفسه،ص،38.
93)- نفسه،ص،38.
94)- نفسه،ص،38.

به فكرهم موجوداً فيهم بالقوة، وحاولوا إخراجه إلى الفعل والممارسة لما رأوا حاجـة ثقافتهم إلى التأصيل والتوثيق والانفتاح على الثقافات الأخرى وتبادل الأخذ والعطاء.

يتبين لنا بعد هذه القراءة السريعة لبعض ما جاء في التراث اللساني العربـي أن العلماء العرب القدامى يحملون من الوعي المتعلّق بدراسة النصوص ما يجعلهم مـن المؤسسين الحقيقيين للدراسة النصية كما هي عليه الآن فيما يسمى بنحـو الـنص أو لسانيات النص وتحليل الخطاب وبخاصة ما تعلّق بمحاور الإحالـة الكلاميـة وبنـاء النصوص ودلالاتها على مستوى العلامات اللغوية وأركان الجملة وآليات التخاطـب ووظائف اللغة، وما تعلّق بدراستهم لضوابط الـربط الفكـري والانسـجام المتعلّـق بالتشكيل اللغوي في مستوياته الصوتية والصـرفية والنحويـة والجانـب الإعلامـي الإخباري في النص والقصد والمقام وعلم المخاطب وكلّها عناصر ذات أهميـة فـي الدراسات النصية في عصرنا، إذ من خلالها تتكون "**النصانية**" " la textualite" كما عند "دريسلار" و "دوبوغراند" في كتابهما " مقدمة للنصوص اللغوية".

المصادر والمراجع

1- ابن جني، الخصائص، تح، محمد علي النجار، دار الكتاب العرب، بيروت، د ت.

2- ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، مادة :(ن،ص،ص).

3- أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، دراسة في علـوم القـرآن، ط/2، المركـز الثقافي العربي، بيروت، 1994.

4- الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، المركـز الثقـافي العربي، بيروت، ط/1993،1.

5- أنيس، إبراهيم، من أسرار اللغة، طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، د، ت.

6- بناني، محمد الصغير، مفهوم النص عند المنظرين القدماء، مجلة اللغـة والأدب، العدد/12، قسم اللغة العربية، جامعة الجزائر،1997.

7- الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظام المعرفة فـي الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/5، بيروت، 1996.

8- الجاحظ،الحيوان، ط/2، تح، عبد السلام هارون، دار الجيـل، بيـروت، 1996. البيان والتبين، تح، حسن السندوسي، دار المعارف، تونس،1990.

9- - الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، 1991.

10- الحاج صالح، عبد الرحمن، الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز، العدد، 2، الجزائر، 1993.

11- حرب، علي، الحقيقة والمجاز، نظرة لغوية في العقل والدولة، دراسات عربية، عدد/ 6، سنة 1983.

12- سلوم، تامر، نظريـة اللغـة والجمـال فـي النقـد العربـي، دار الحـوار، سورية،1983.

13- سيبويه، الكتاب، تح، عبد السلام هارون، عام الكتب، بيروت، ط/3، 1983.

14- الشافعي محمد بن إدريس،الرسالة،تح، أحمد شاكر، القاهرة، الأبياري الحلبي، 1940.

15- شاوش، محمد، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربيـة، تأسـيس نحو النص، جامعة منوبة ، تونس، 2001.

16- الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، 1985.

17- صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطـوره إلـى القـرن السادس(مشروع قراءة) ط/2، 1994، منوبة، تونس.

18- عروي، محمد إقبال، من بنود الاصطلاح في التراث الإسلامي، مجلـة آفـاق الثقافة والتراث، عدد/23/22، سنة 1998، بالإمارات العربية المتحدة.

19- - عوض، يوسف نور، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمـان، القـاهرة، ط/1994،1.

20- فضل، صلاح، إشكالية المصطلح النقدي بين الوضـع والنقـل، مجلـة كليـة الآداب، فاس، المغرب، عدد/4، سنة 1988.

21- - نخلة، محمد أحمد، لغة القرآن في جزء "عم"، دار النهضة العربية، مصـر، 1981.

22- الوعر، مازن، جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب في ضوء نظريـة النحو العالمي لتشومسكي، لبنان، 1999.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2005/6/15.